أربعينية الإمام الحسين "عليه السلام" الهوية الجامعة

قراءة اجتماعية في عولمة أكبر تجمع بشري سلمي في العالم

بقلم

د. مصطفى سوادي جاسم

باحث في مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

مقدمة

ليست أربعينية الإمام الحسين "عليه السلام" مجرد مناسبة دينية تستذكر حادثة تاريخية وقعت قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، بل تحولت عبر الزمن إلى ظاهرة اجتماعية وإنسانية عالمية تجاوزت حدود المذهب والدين والقومية والجغرافيا. فالملايين التي تسير سنوياً نحو كربلاء لا تمثل فقط انتماءً عقائدياً، وإنما تعكس حالة اجتماعية مركبة تتداخل فيها الهوية والذاكرة والقيم والتضامن والعمل التطوعي والانتماء الإنساني.

ويرى علم الاجتماع، ان أهمية الأربعينية لا تكمن في عدد المشاركين فحسب، بل في قدرتها على إنتاج مجتمع مؤقت تتلاشى فيه الفوارق الطبقية والسياسية والثقافية، ليحل محلها شعور جمعي قائم على المشاركة والإيثار والكرامة الإنسانية. ولهذا أصبحت الأربعينية اليوم واحدة من أبرز صور "العولمة الاجتماعية من الأسفل"، أي العولمة التي يصنعها الناس أنفسهم، لا الحكومات ولا الشركات ولا المؤسسات الدولية.

أولاً: الأربعينية وتحول الشعيرة إلى ظاهرة اجتماعية عالمية

لم تعد زيارة الأربعين في العقود الأخيرة مجرد شعيرة دينية لإحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسين "عليه السلام"، بل تحولت إلى ظاهرة اجتماعية وإنسانية عالمية استثنائية، تستقطب ملايين المشاركين من مختلف الجنسيات والثقافات والأديان. فقد تجاوزت الزيارة إطارها المذهبي والمحلي، لتصبح حدثاً عالمياً يثير اهتمام علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والباحثين في دراسات الدين والهوية، لما تنطوي عليه من أبعاد اجتماعية وثقافية يصعب تفسيرها بالمنظور الديني وحده.

بينما نظريات علم الاجتماع، لا تُعد الظاهرة عالمية لمجرد اتساع نطاقها الجغرافي أو ازدياد أعداد المشاركين فيها، وإنما عندما تنجح في إنتاج منظومة من القيم والمعاني المشتركة التي تستوعب جماعات مختلفة ومتنوعة. فالمؤسسة الاجتماعية العالمية هي تلك التي تتجاوز حدود الجماعة المؤسسة لها، وتصبح قادرة على بناء روابط إنسانية بين أفراد يختلفون في الدين والقومية والثقافة والانتماء الفكري، وهذا ما تحقق في الأربعينية؛ إذ لم تعد حكراً على أتباع مذهب معين، بل غدت فضاءً اجتماعياً مفتوحاً يستقبل الإنسان بوصفه إنساناً قبل أي انتماء آخر.

ويمكن تفسير هذا التحول من خلال مفهوم الهوية الجمعية الذي طرحه عالم الاجتماع ألبرتو ميلوتشي، إذ لا تتشكل الهوية هنا على أساس الانتماء المذهبي فحسب، بل من خلال المشاركة في تجربة اجتماعية مشتركة تؤسس لشعور بالانتماء إلى منظومة أخلاقية تتجاوز الاختلافات التقليدية. فالملايين التي تسير نحو كربلاء، على الرغم من تنوع لغاتها وثقافاتها ومعتقداتها، تتوحد حول قيم العدالة والكرامة والإيثار والتضحية، لتنشأ هوية جمعية عابرة للحدود الجغرافية والأيديولوجية.

كما تمثل الأربعينية نموذجاً واضحاً لما وصفه إميل دوركايم بـ "الفوران الجمعي"؛ إذ يعيش المشاركون حالة من التفاعل الوجداني المكثف، تتولد عنها مشاعر التضامن والانتماء، وتتعزز خلالها القيم المشتركة بصورة تفوق ما تنتجه الحياة اليومية. فالفرد لا يشعر بأنه جزء من حشد فحسب، بل يصبح عضواً في جماعة أخلاقية مؤقتة تتوحد حول رسالة إنسانية تتجاوز المصالح الفردية.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

ومن زاوية أخرى، تتحول طرق المشي إلى كربلاء إلى ما يشبه الفضاء العام الذي تحدث عنه يورغن هابرماس، حيث يلتقي أشخاص من خلفيات اجتماعية وثقافية وفكرية مختلفة في مساحة مفتوحة للحوار والتفاعل والتعايش، دون أن تلغي هذه المساحة خصوصياتهم الثقافية أو الدينية. فالاختلاف لا يتحول إلى عامل صراع، بل إلى مصدر للتعارف والتكامل، في ظل مرجعية قيمية مشتركة يمثلها الإمام الحسين بوصفه رمزاً للعدالة والكرامة الإنسانية.

أما من الناحية الاجتماعية، فإن ما يميز الأربعينية هو قدرتها على إنتاج مستوى مرتفع من رأس المال الاجتماعي بالمفهوم الذي تناوله بيير بورديو وروبرت بوتنام؛ إذ تنشأ بين المشاركين شبكات واسعة من الثقة والتعاون والتكافل والعمل التطوعي، تتجسد في آلاف المواكب والخدمات المجانية التي يقدمها الناس بعضهم لبعض دون انتظار مقابل. وهذه الشبكات لا تقوم على المصالح الاقتصادية أو العلاقات الرسمية، وإنما على الثقة والقيم المشتركة، وهو ما يمنح المجتمع قدرة استثنائية على التنظيم الذاتي وإدارة ملايين المشاركين بكفاءة عالية.

ثانياً: عولمة القيم لا عولمة العقيدة

يُقصد بالعولمة في مفهومها التقليدي انتقال السلع والأفكار والثقافات وأنماط الحياة عبر الحدود الجغرافية، حتى تصبح ذات حضور عالمي يتجاوز بيئتها الأصلية؛ إلا أن هذا المفهوم ارتبط في كثير من الأحيان بفرض أنماط ثقافية أو اقتصادية مهيمنة على المجتمعات الأخرى، الأمر الذي جعل العولمة تُتهم بأنها تسعى إلى توحيد العالم وفق نموذج واحد؛ غير أن أربعينية الإمام الحسين "عليه السلام" تقدم نموذجاً مغايراً يمكن وصفه بـ "عولمة القيم"، وهي عولمة لا تقوم على فرض العقائد أو استبدال الهويات، وإنما على نشر منظومة أخلاقية مشتركة تستطيع مخاطبة الضمير الإنساني أينما كان.

فالأربعينية لا تدعو الإنسان إلى تغيير مذهبه أو دينه، ولا تجعل الانتماء العقدي شرطاً للمشاركة في رسالتها الإنسانية، بل تفتح المجال أمام الجميع للالتقاء حول قيم تتفق عليها الفطرة الإنسانية قبل أن تقرها الأديان، مثل الكرامة، والعدالة، ونصرة المظلوم، والتضحية، والحرية، والإيثار، ورفض الاستبداد والظلم. ومن هنا فإن ما يعبر الحدود ليس العقيدة، بل الرسالة الأخلاقية التي تجسدها واقعة كربلاء.

وتكتسب هذه القيم قوة عالمية لأنها لا ترتبط بزمان أو مكان أو جماعة بعينها، بل تعبّر عن تطلعات الإنسان في مختلف الحضارات؛ فالعدالة ليست قيمة إسلامية فحسب، كما أن مقاومة الظلم ليست مطلباً دينياً فقط، وإنما هي مبادئ إنسانية مشتركة تبنتها الفلسفات والأديان والمواثيق الدولية عبر التاريخ.

بينما علم الاجتماع ونظرياته يرى، ان عالمية الأربعينية لا تقوم على توحيد الناس في هوية واحدة، بل على توحيدهم في منظومة قيمية واحدة مع احتفاظ كل فرد بخصوصيته الدينية والثقافية. فالمسيحي يبقى مسيحياً، والصابئي يحتفظ بعقيدته، والإيزيدي بهويته، كما يبقى السني والشيعي على انتمائهما، ويشاركهم المثقف والعلماني والباحث والسائح، لكنهم جميعاً يلتقون عند نقطة مشتركة تتمثل في احترام الإنسان وتقدير التضحية والانتصار للمظلوم. وهذا ما يجعل الأربعينية فضاءً للتلاقي القيمي لا للاندماج العقدي.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

ثالثاً: لماذا أصبحت الأربعينية هوية جامعة؟

من أكثر الظواهر الاجتماعية إثارة للاهتمام في أربعينية الإمام الحسين "عليه السلام" أنها لم تعد مقتصرة على فئة دينية أو اجتماعية محددة، بل تحولت إلى مساحة يلتقي فيها أفراد ينتمون إلى خلفيات تبدو متباعدة، بل ومتعارضة أحياناً. ففي طريق كربلاء يسير المؤمن إلى جانب غير المتدين، ورجل الدين إلى جانب الأكاديمي، والمثقف إلى جانب العامل، كما يشارك فيها العلماني والليبرالي والمحافظ واليساري، والعربي والكردي والتركماني، والمسلم وغير المسلم، دون أن يشعر أي منهم بأن وجود الآخر يناقض وجوده أو ينتقص من هويته.

وتثير هذه الظاهرة سؤالاً اجتماعياً مهماً: **كيف استطاعت الأربعينية أن تجمع هذا التنوع الواسع، في وقت تعجز فيه كثير من المؤسسات السياسية والثقافية وحتى الدينية عن تحقيق مثل هذا التلاقي؟**

إن الإجابة تكمن في طبيعة الهوية التي تنتجها الأربعينية؛ فهي لا تؤسس لهوية أيديولوجية تقوم على الإقصاء أو المفاضلة بين الانتماءات، ولا تفرض على المشاركين تبني رؤية فكرية واحدة، وإنما تبني هوية وجدانية أخلاقية تنشأ من التجربة المشتركة والقيم الإنسانية التي يعيشها الجميع أثناء الزيارة. فالفرد لا يُسأل عن انتمائه السياسي أو مذهبه أو قوميته، بل يصبح جزءاً من مجتمع مؤقت يتعامل معه الآخرون بوصفه إنساناً يستحق الاحترام والخدمة والتقدير. وتمثل هذه الظاهرة في علم الاجتماع شكلاً من أشكال الهوية الجامعة التي لا تلغي الهويات الفرعية، بل تستوعبها داخل إطار أوسع؛ فالزائر يحتفظ بعقيدته وثقافته وقناعاته الفكرية، لكنه يكتشف في الوقت نفسه مساحة مشتركة مع الآخرين، قوامها الإيمان بقيم العدالة والكرامة والإيثار والتضحية وخدمة الإنسان، وهنا لا تنصهر الهويات المختلفة، وإنما تتعايش في ظل مرجعية أخلاقية واحدة.

ولعل سر هذه القدرة على الجمع أن الإمام الحسين "عليه السلام" يمثل لدى شرائح واسعة أكثر من كونه شخصية دينية؛ فهو رمز أخلاقي عالمي يجسد الثبات على المبدأ، ورفض الظلم، والدفاع عن كرامة الإنسان، ولهذا قد يختلف الناس في تفسير الدين أو في مواقفهم السياسية والفكرية، لكنهم يتفقون على احترام من ضحّى من أجل القيم التي يؤمن بها الإنسان في كل زمان ومكان.

كما أن التجربة الميدانية للأربعينية تسهم في تعزيز هذه الهوية الجامعة؛ فالزائر يتلقى الخدمة من أشخاص لا يعرفهم، ويشارك الطعام والمبيت مع غرباء، ويسير ساعات طويلة مع أناس لا تجمعه بهم لغة واحدة أو ثقافة واحدة، لكنه يشعر معهم بدرجة عالية من الألفة والانتماء. وهذه الممارسات اليومية تضعف الحواجز النفسية والاجتماعية، وتعيد تعريف العلاقة بين الأفراد على أساس الإنسانية المشتركة، لا على أساس التصنيفات المسبقة.

رابعاً: المشي إلى كربلاء بوصفه لغة اجتماعية

لا ينظر علم الاجتماع إلى المشي في أربعينية الإمام الحسين "عليه السلام" على أنه مجرد انتقال جسدي من مكان إلى آخر، بل يعدّه فعلاً اجتماعياً رمزياً يحمل معاني ودلالات تتجاوز الحركة المادية، فكل خطوة يخطوها الزائر تمثل رسالة صامتة تعبر عن الانتماء، والتضامن، والاستعداد لتحمل المشقة من أجل قيمة يؤمن بها،

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

ومن ثم فإن المشي إلى كربلاء لا يُقرأ بوصفه وسيلة للوصول إلى مقصد جغرافي فحسب، بل بوصفه لغة اجتماعية تتحدث بها الملايين دون كلمات.

فعندما يترك الإنسان سيارته أو وسائل الراحة، ويسير عشرات الكيلومترات إلى جانب ملايين الآخرين، فإنه يعلن بصورة غير مباشرة أن الطريق إلى المبادئ لا يُقاس بالراحة، وأن جميع المشاركين متساوون في هذه الرحلة، مهما اختلفت أوضاعهم الاجتماعية أو الاقتصادية أو الوظيفية، وهنا يتحول الطريق إلى فضاء تتراجع فيه الفوارق التقليدية التي تميز الحياة اليومية، لتحل محلها علاقة إنسانية تقوم على المشاركة والتكافؤ.

وفي هذا المشهد لا توجد درجات اجتماعية أو امتيازات أو حواجز طبقية بالمعنى المتعارف عليه. فقد تجد الوزير يسير بجوار العامل، والأستاذ الجامعي إلى جانب الفلاح، والطبيب مع الطالب، والغني مع الفقير، دون أن يشعر أحد بأن مكانته تمنحه حقاً في التقدم على الآخرين أو التميز عنهم، فالكل يرتدي البساطة نفسها، ويسير على الطريق ذاته، ويواجه التعب نفسه، ويتلقى الخدمة بالطريقة نفسها، إنها مساواة لا تُعلن في خطاب، بل تُمارس واقعاً، وهو ما يمنحها أثراً أعمق من أي دعوة نظرية إلى العدالة الاجتماعية.

ومن منظور سوسيولوجي، يمكن النظر إلى هذا المشهد بوصفه إعادة تشكيل مؤقتة للعلاقات الاجتماعية؛ إذ تتراجع معايير المكانة والسلطة والثروة، لتحل محلها معايير أخلاقية جديدة، أساسها الصبر والتواضع والتعاون وخدمة الآخرين؛ فالقيمة الاجتماعية للفرد لا تُقاس بما يملك، بل بما يقدمه للآخرين، وبقدرته على التفاعل الإيجابي مع المجتمع الذي يتشكل على امتداد طريق الزيارة.

كما يسهم المشي الجماعي في بناء شعور قوي بالانتماء الجمعي؛ فالسير لساعات طويلة مع أعداد هائلة من الناس، وتبادل التحية والدعاء والمساعدة، يولد إحساساً بأن الجميع يشكلون جسداً اجتماعياً واحداً، رغم اختلاف لغاتهم وجنسياتهم وثقافاتهم، وهذا ما أشار إليه عالم الاجتماع إميل دوركايم في حديثه عن التجربة الجمعية التي تعزز التضامن الاجتماعي وتمنح الأفراد شعوراً بأنهم جزء من كيان أكبر من ذواتهم.

خامساً: المواكب... أكبر اقتصاد تطوعي في العالم

من أبرز الظواهر التي تميز أربعينية الإمام الحسين "عليه السلام" أنها لا تقوم على منطق التبادل الاقتصادي التقليدي، بل على ثقافة العطاء المجاني؛ فملايين الزائرين يحصلون على مختلف الخدمات دون مقابل مادي؛ من الطعام والشراب، إلى العلاج والإسعافات الأولية، والمبيت، والنقل، والإرشاد، بل وحتى غسل الملابس والعناية بالأطفال في بعض المواكب، إنها منظومة خدمية متكاملة تعمل على مدار أيام الزيارة، وتستوعب أعداداً هائلة من البشر، دون أن يكون الربح أو المقابل المالي هو المحرك الرئيس لها.

ومن منظور الاقتصاد التقليدي، تبدو هذه الظاهرة استثنائية؛ إذ يصعب تفسيرها وفق قوانين العرض والطلب أو حسابات المنفعة الفردية، لأن ما يُقدَّم من خدمات يتجاوز في حجمه وإمكاناته ما تستطيع كثير من المؤسسات التجارية أو حتى الحكومية تقديمه في ظروف مماثلة، غير أن علم الاجتماع يقدم تفسيراً مختلفاً لهذه الظاهرة، يتمثل في مفهوم رأس المال الاجتماعي الذي تناوله بيير بورديو وروبرت بوتنام، حيث تتحول الثقة المتبادلة، والانتماء الجمعي، والقيم الأخلاقية المشتركة إلى مورد اجتماعي قادر على تعبئة الطاقات

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

البشرية والمادية بصورة طوعية، وإنتاج خدمات واسعة النطاق دون الحاجة إلى الحوافز الاقتصادية التقليدية. فالمواكب الحسينية لا تعتمد على عقود عمل أو رواتب أو مصالح تجارية، وإنما تقوم على شبكات من الثقة والتعاون والمسؤولية الاجتماعية، يشارك فيها أفراد وأسر وعشائر ومؤسسات، يتقاسمون الأدوار بصورة تلقائية، مدفوعين بقناعة راسخة بأن خدمة الزائر تمثل قيمة أخلاقية ورسالة إنسانية قبل أن تكون واجباً دينياً، ومن هنا يتحول العطاء إلى ثقافة مجتمعية متوارثة، تنتقل من جيل إلى آخر، وتصبح جزءاً من الهوية الاجتماعية للمجتمع.

كما تكشف هذه التجربة عن قدرة المجتمعات على تنظيم نفسها ذاتياً عندما تتوافر منظومة قيمية مشتركة، فآلاف المواكب المنتشرة على امتداد الطرق تعمل في وقت واحد، وتقدم خدمات متنوعة، دون وجود إدارة مركزية واحدة تشرف على تفاصيل عملها، ومع ذلك يندر أن يحدث خلل كبير في استمرارية الخدمة، وهذا يعكس مستوى عالياً من الثقة الاجتماعية والتكامل بين أفراد المجتمع، وهو ما يعده علماء الاجتماع أحد أهم مؤشرات قوة رأس المال الاجتماعي.

ولا يقتصر أثر هذا الاقتصاد التطوعي على تلبية الاحتياجات المادية للزائرين، بل يمتد إلى إنتاج قيم اجتماعية عميقة، مثل الإيثار، والتكافل، والشعور بالمسؤولية تجاه الآخر، وتعزيز الروابط بين أفراد المجتمع. فالخادم لا يرى فيما يقدمه خسارة مادية، بل يراه استثماراً أخلاقياً وإنسانياً يعزز مكانته داخل الجماعة، بينما يشعر الزائر بأنه موضع ترحيب واحترام، بغض النظر عن جنسيته أو طبقته الاجتماعية أو انتمائه الثقافي.

سادساً: الأربعينية وإعادة إنتاج التضامن الاجتماعي

يرى عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم أن المجتمعات لا تحافظ على تماسكها بالقوانين والمؤسسات وحدها، وإنما تحتاج بصورة مستمرة إلى طقوس جماعية تعيد إنتاج شعورها بالوحدة والانتماء، فالطقوس، في نظره، ليست ممارسات دينية فحسب، بل آليات اجتماعية تعزز التضامن، وتجدد القيم المشتركة، وتربط الأفراد بجماعتهم، وتمثل أربعينية الإمام الحسين "عليه السلام" نموذجاً معاصراً لهذه الفكرة؛ إذ تتحول الزيارة إلى مناسبة سنوية يعاد فيها بناء الروابط الاجتماعية وإحياء الشعور بالانتماء إلى جماعة تتشارك منظومة أخلاقية واحدة.

فالزائر لا يعود من كربلاء كما ذهب إليها، لأنه لا يعيش تجربة فردية معزولة، بل يخوض تجربة اجتماعية كثيفة تؤثر في نظرته إلى ذاته وإلى الآخرين، وخلال أيام المسير يكتسب علاقات إنسانية جديدة، ويتعلم التعاون وتقاسم المسؤولية، ويشارك الغرباء الطعام والمبيت، ويتبادل معهم المساعدة والاحترام، حتى وإن لم تجمعه بهم لغة واحدة أو معرفة سابقة، ومع تكرار هذه الممارسات تنشأ بين الأفراد روابط وجدانية تتجاوز حدود المعرفة الشخصية، وتؤسس لشعور عميق بالانتماء إلى مجتمع أوسع.

وعلم الاجتماع يقرأ هذه التجربة بانها تسهم في إعادة إنتاج التضامن الاجتماعي من خلال تحويل القيم الأخلاقية إلى ممارسات يومية ملموسة، فالإيثار لا يبقى مفهوماً نظرياً، بل يصبح سلوكاً يُمارس، والكرم يتحول إلى خدمة، والتعاون إلى ممارسة جماعية، والاحترام إلى علاقة متبادلة بين ملايين الأشخاص. وهكذا تتجدد

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

القيم الاجتماعية كل عام، ليس عبر الخطابات أو الشعارات، وإنما عبر التجربة الحية التي يعيشها المشاركون على امتداد طريق الزيارة.

كما تؤدي الأربعينية دوراً مهماً في الحد من النزعة الفردية التي أصبحت إحدى سمات المجتمعات الحديثة، إذ يشعر الفرد بأنه جزء من جماعة أكبر تشاركه الهدف والقيم والمشاعر، وفي هذا السياق تتكون هوية جمعية تتجاوز حدود الانتماءات الضيقة، وتمنح المشاركين إحساساً بأنهم مسؤولون عن بعضهم بعضاً، وأن نجاح التجربة يعتمد على تعاون الجميع لا على جهود الأفراد منفردين.

سابعاً: لماذا يشارك غير المتدينين؟

من الأخطاء الشائعة اختزال المشاركة في أربعينية الإمام الحسين "عليه السلام" في الدافع الديني وحده، وكأن جميع المشاركين ينطلقون من الخلفية العقدية نفسها، إلا أن الواقع الاجتماعي يكشف أن دوافع السلوك الإنساني أكثر تعقيداً وتنوعاً؛ فالظواهر الكبرى لا تستمر وتتوسع إذا اعتمدت على دافع واحد، بل تكتسب قدرتها على الاستمرار من تعدد المعاني التي يجدها الناس فيها، كلٌ بحسب خلفيته الفكرية والثقافية والاجتماعية.

ولهذا لا يشارك في الأربعينية المتدينون وحدهم، بل نجد بين المشاركين أشخاصاً لا يمارسون التدين التقليدي، أو لا ينتمون إلى الإسلام أصلاً، أو ينظرون إلى الزيارة من زاوية ثقافية أو إنسانية أكثر منها دينية؛ فبعضهم يبحث عن معنى أعمق للحياة في عالم تزداد فيه النزعة المادية والفردية، وبعضهم يرغب في اختبار واحدة من أكبر التجارب الإنسانية الجماعية في العالم، بينما يشارك آخرون بدافع الانتماء الثقافي أو الوطني، أو لمرافقة أسرهم وأصدقائهم، أو لدراسة الظاهرة من منظور أكاديمي أو إعلامي أو أنثروبولوجي.

كما ينجذب كثيرون إلى ما تمثله الأربعينية من نموذج فريد للخدمة المجانية والعمل التطوعي، إذ يثير هذا الحجم الهائل من التكافل والتعاون فضول الباحثين والمهتمين بالشأن الاجتماعي، ويقدم لهم نموذجاً عملياً لمجتمع يستطيع تنظيم نفسه اعتماداً على الثقة والقيم المشتركة أكثر من اعتماده على القوانين أو المصالح الاقتصادية.

ومن جانب آخر، فإن شخصية الإمام الحسين "عليه السلام" تجاوزت في الوعي الإنساني حدود الانتماء الديني الضيق، لتصبح رمزاً عالمياً للعدالة والكرامة ومقاومة الظلم. ولذلك قد يرى فيه الإنسان غير المتدين أو غير المسلم نموذجاً أخلاقياً يلهمه، دون أن يعني ذلك تبنيه للمعتقدات الدينية المرتبطة بالواقعة. فهو يتفاعل مع الرسالة الإنسانية التي يمثلها الحسين أكثر من تفاعله مع البعد العقدي للزيارة.

ويشير علم الاجتماع الى ان هذا التنوع في الدوافع يعكس قدرة الأربعينية على إنتاج معانٍ اجتماعية متعددة تستوعب فئات مختلفة من المجتمع، بحيث يجد كل مشارك فيها ما يتوافق مع منظومته القيمية وخبراته الشخصية. فالمتدين يجد فيها شعيرة وعبادة، والمثقف يجد فيها ظاهرة حضارية، والباحث يجد فيها ميداناً للدراسة، والإنسان يجد فيها نموذجاً حياً للتضامن والإيثار، وهو ما يفسر اتساع قاعدة المشاركين عاماً بعد آخر.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

ثامناً: الأربعينية وصناعة الهوية العراقية

على الرغم من أن أربعينية الإمام الحسين أصبحت مناسبة عالمية يشارك فيها ملايين الزائرين من مختلف دول العالم، فإنها ما تزال تؤدي دوراً بالغ الأهمية في إعادة تشكيل الهوية الوطنية العراقية وتعزيزها، فإلى جانب بعدها الديني والإنساني، تمثل الأربعينية واحدة من أكبر المناسبات التي يلتقي فيها العراقيون من مختلف المحافظات والمكونات الاجتماعية في فضاء واحد، يتجاوز الانقسامات المناطقية والقومية، ويعيد تذكيرهم بما يجمعهم أكثر مما يفرقهم.

فعلى امتداد الطرق المؤدية إلى كربلاء تتراجع الهويات المحلية أمام هوية وطنية أوسع؛ فأبناء الجنوب يستقبلون أبناء الشمال ويخدمونهم، وأهالي الفرات الأوسط يفتحون بيوتهم للقادمين من بغداد والأنبار ونينوى وصلاح الدين وديالى، كما يشارك أبناء المدن وأبناء الريف في تقديم الخدمات جنباً إلى جنب، دون أن يكون الانتماء الجغرافي أو الاجتماعي معياراً في طبيعة العلاقة بينهم، وفي المشهد نفسه يلتقي العربي والكردي والتركماني، ومعهم سائر المكونات العراقية، في تجربة يومية قائمة على التعاون والاحترام المتبادل، بعيداً عن الصور النمطية أو الانقسامات التي قد تفرضها الظروف السياسية.

وتؤدي مثل هذه اللقاءات الجماهيرية دوراً مهماً في بناء ما يسمى بالهوية الوطنية الجامعة بحسب نظريات علم الاجتماع؛ فهي توفر للأفراد خبرة معيشية مباشرة يتفاعلون فيها مع مواطنين من بيئات مختلفة، فيكتشفون أن ما يجمعهم من قيم ومصالح ومشاعر انتماء أكبر بكثير مما يفرقهم من اختلافات ثقافية أو مناطقية. وعندما تتكرر هذه الخبرة عاماً بعد آخر، فإنها تسهم في ترسيخ صورة ذهنية إيجابية عن الآخر داخل المجتمع العراقي، وتضعف مشاعر العزلة والانغلاق بين المكونات.

كما أن ثقافة الخدمة المتبادلة في الأربعينية تؤدي دوراً رمزياً في إعادة تعريف مفهوم المواطنة. فالعلاقة بين العراقيين لا تقوم هنا على الحقوق والواجبات القانونية فحسب، وإنما على الإحساس بالمسؤولية الأخلاقية تجاه الآخر، بوصفه شريكاً في الوطن قبل أن يكون شريكاً في الانتماء الديني أو الاجتماعي. ومن ثم تتحول الخدمة إلى ممارسة يومية تعبر عن التضامن الوطني، وتجعل الانتماء للعراق تجربة تُعاش في الواقع، لا مجرد شعار يُرفع في المناسبات.

ولا يعني ذلك أن الأربعينية تلغي التنوع الذي يتميز به المجتمع العراقي، بل على العكس، فهي تقدم نموذجاً لإدارة هذا التنوع في إطار من الاحترام والتكامل. فكل مكون يحتفظ بخصوصيته الثقافية والاجتماعية، لكنه يجد في طريق كربلاء مساحة مشتركة للتواصل والتعاون مع بقية المكونات، وهو ما يعزز مفهوم الوحدة في ظل التنوع، ويمنح الهوية العراقية مضموناً اجتماعياً يتجاوز التعريفات السياسية التقليدية.

تاسعاً: الأربعينية بوصفها قوة ناعمة

في أدبيات العلاقات الدولية، يشير مفهوم القوة الناعمة الذي طوره عالم السياسة جوزيف ناي إلى قدرة الدول أو المجتمعات على التأثير في الآخرين من خلال الثقافة والقيم والأفكار والنموذج الحضاري، بدلاً من الاعتماد على القوة العسكرية أو الضغوط الاقتصادية، ومن هذا المنظور، تمتلك أربعينية الإمام الحسين "عليه السلام"

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

مقومات قوة ناعمة استثنائية، لأنها تقدم للعالم صورة حية عن منظومة من القيم الإنسانية التي تتجسد في سلوك الملايين، لا في الشعارات أو الخطابات.

وتنبع هذه القوة من مجموعة من الخصائص التي قلما تجتمع في حدث واحد؛ فهي تمثل أكبر تجمع بشري سلمي متكرر في العالم، وأوسع شبكة تطوع مجانية تقدم خدماتها لملايين الزائرين، كما تقدم نموذجاً عملياً للتكافل الاجتماعي والتعايش الإنساني، فضلاً عن قدرتها على استقطاب اهتمام وسائل الإعلام والباحثين والجامعات ومراكز الدراسات من مختلف أنحاء العالم، بوصفها ظاهرة اجتماعية وثقافية وإنسانية فريدة. وإلى جانب ذلك، تحمل الأربعينية خطاباً أخلاقياً عالمياً يقوم على قيم العدالة والرحمة والإيثار والكرامة الإنسانية، وهي قيم يفهمها الناس على اختلاف أديانهم وثقافاتهم.

ولا تكمن قوة الأربعينية في أعداد المشاركين فحسب، بل في الرسائل التي تنقلها إلى العالم من خلال الممارسة اليومية. فمشاهد الخدمة المجانية، والتعاون بين الغرباء، واستقبال الملايين دون تمييز، وتقديم الطعام والمأوى والعلاج بلا مقابل، ترسم صورة حضارية عن مجتمع يستطيع تحويل القيم الأخلاقية إلى سلوك اجتماعي منظم. وهذه الصورة تمتلك تأثيراً يفوق أحياناً تأثير آلاف الخطب أو الحملات الإعلامية، لأنها تقدم نموذجاً واقعياً يراه الناس بأعينهم.

كما تسهم الأربعينية في بناء جسور للتواصل الثقافي بين الشعوب، إذ يلتقي على أرض العراق زائرون من عشرات الدول، يحمل كل منهم ثقافته ولغته وتجاربه، ويعود إلى بلده وهو يحمل انطباعات مباشرة عن المجتمع العراقي والثقافة الإسلامية. وبهذا المعنى، تصبح الأربعينية وسيلة للتواصل الحضاري، تسهم في تصحيح كثير من الصور النمطية، وتعزز الحوار بين الثقافات من خلال الاحتكاك الإنساني المباشر، لا عبر الوسائط الإعلامية فقط.

ومن منظور استراتيجي، فإن هذه الظاهرة تمثل رصيداً حضارياً يمكن أن يسهم في تعزيز المكانة الثقافية للعراق والعالم الإسلامي إذا أُحسن استثماره. فالتوثيق العلمي، وتشجيع الدراسات الأكاديمية، وإنتاج الأفلام الوثائقية، وتنظيم المؤتمرات الدولية، وتوفير الخدمات الإعلامية متعددة اللغات، كلها وسائل من شأنها أن تحول الأربعينية إلى منصة عالمية للتعريف بالقيم الإنسانية التي جسدتها نهضة الإمام الحسين، بعيداً عن الصور النمطية أو القراءات الضيقة.

عاشراً: تحديات الحفاظ على عالمية الأربعينية

إن وصول أربعينية الإمام الحسين "عليه السلام" إلى مكانتها العالمية لم يكن حدثاً عابراً، بل هو حصيلة تراكم تاريخي وثقافي واجتماعي طويل، ولذلك فإن الحفاظ على هذه المكانة يتطلب وعياً مستمراً بالتحديات التي قد تؤثر في رسالتها الإنسانية، فكل ظاهرة عالمية، مهما بلغت قوتها، تظل معرضة لخطر الانغلاق أو التسييس أو فقدان قدرتها على مخاطبة الإنسان بوصفه إنساناً.

ولعل أول هذه التحديات يتمثل في تجنب اختزال الأربعينية في الخطابات السياسية أو الصراعات المذهبية الضيقة، فكلما تحولت الزيارة إلى ساحة للتنافس السياسي أو لتبادل الاتهامات أو لتكريس الانقسامات،

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

تراجعت قدرتها على أداء رسالتها الجامعة، وانكمش أفقها الإنساني. فالناس قد يختلفون في مواقفهم السياسية أو اجتهاداتهم الدينية، لكنهم يستطيعون الالتقاء حول القيم التي جسدها الإمام الحسين "عليه السلام"، وهي قيم العدل والرحمة والكرامة ونصرة الإنسان. ومن هنا فإن قوة الأربعينية تكمن في بقائها فوق الاستقطابات الآنية، لا في انخراطها فيها.

كما أن عالمية الأربعينية تقتضي ترسيخ ثقافة الانفتاح واحترام التنوع، فالمشاركون فيها يأتون من بيئات دينية وثقافية وفكرية متعددة، ومن الطبيعي أن تختلف رؤيتهم للحياة أو للدين أو للتاريخ. غير أن هذا الاختلاف لا ينبغي أن يُنظر إليه بوصفه تهديداً، بل بوصفه فرصة لإظهار قدرة رسالة الإمام الحسين "عليه السلام" على مخاطبة الضمير الإنساني بمختلف انتماءاته. فكلما شعر الزائر، مهما كانت خلفيته، بأنه موضع احترام وترحيب، ازدادت عالمية الزيارة واتسعت دائرة تأثيرها.

ومن التحديات المهمة أيضاً المحافظة على الصورة الحضارية للأربعينية بوصفها نموذجاً للتنظيم والتطوع والتكافل، فالعالم اليوم لا يكتفي بسماع الخطابات، بل يقيم الظواهر من خلال ما يراه من سلوك وممارسات، ولذلك فإن حسن التنظيم، والاهتمام بالنظافة، وحماية البيئة، واحترام الأنظمة العامة، والعناية بالزائر، والتعامل الحضاري مع وسائل الإعلام والباحثين، كلها عناصر تسهم في ترسيخ الصورة الإيجابية للأربعينية وتعزيز مكانتها بوصفها نموذجاً حضارياً عالمياً.

ويضاف إلى ذلك أهمية توثيق هذه الظاهرة وتقديمها بلغة علمية يفهمها العالم؛ فالأربعينية ليست مجرد حدث ديني، بل هي أيضاً ظاهرة اجتماعية وإنسانية تستحق أن تُدرس في الجامعات، وأن تُوثق في البحوث، وأن تُقدم عبر الأفلام الوثائقية والمنصات الإعلامية بلغات متعددة. فكلما ازداد الحضور العلمي والثقافي للأربعينية، أصبحت رسالتها أكثر قدرة على الوصول إلى المجتمعات الأخرى بعيداً عن الصور النمطية أو الأحكام المسبقة.

إن عالمية الأربعينية لا تُقاس بعدد المشاركين فيها فقط، مهما كان هذا العدد كبيراً، وإنما تُقاس بقدرتها على احتضان التنوع دون أن تفقد وحدتها، وعلى تحويل الاختلاف إلى تعارف، والتعدد إلى تكامل، والتلاقي إلى فرصة لبناء جسور إنسانية جديدة. فهي تنجح حين يشعر المؤمن وغير المؤمن، والعربي وغير العربي، والمسلم وغير المسلم، بأنهم أمام تجربة إنسانية تحترم كرامتهم وتخاطب ضميرهم.

ومن هنا، فإن التحدي الحقيقي أمام الأربعينية في المستقبل ليس زيادة أعداد الزائرين، بل الحفاظ على رسالتها الأخلاقية والإنسانية بوصفها رسالة مفتوحة إلى العالم.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

استنتاجات

1. أثبتت أربعينية الإمام الحسين "عليه السلام" أنها تجاوزت حدود الشعيرة الدينية لتغدو ظاهرة اجتماعية وإنسانية ذات امتداد عالمي.
2. نجحت الأربعينية في عولمة منظومة من القيم الأخلاقية، كالعدالة والكرامة والإيثار، أكثر من عولمة الانتماء المذهبي.
3. أسهمت الزيارة في بناء هوية جامعة تستوعب التنوع الديني والمذهبي والقومي والفكري، دون أن تلغي خصوصية أي مكون.
4. مثلت تجربة المشي والمواكب نموذجاً عملياً لإعادة إنتاج التضامن الاجتماعي، وتعزيز رأس المال الاجتماعي القائم على الثقة والتطوع والتكافل.
5. كشفت مشاركة غير المتدينين وأتباع الديانات والثقافات المختلفة عن عالمية رسالة الإمام الحسين بوصفها رسالة إنسانية تتجاوز الحدود العقدية.
6. أسهمت الأربعينية في تعزيز الهوية الوطنية العراقية من خلال ترسيخ قيم المواطنة والتعايش والتكافل بين مختلف مكونات المجتمع.
7. تمتلك الأربعينية مقومات قوة ناعمة عالمية يمكن أن تسهم في التعريف بالحضارة الإسلامية وقيمها الإنسانية إذا أُحسن توظيفها علمياً وإعلامياً.
8. إن استدامة عالمية الأربعينية مرهونة بالحفاظ على رسالتها الأخلاقية والإنسانية، وتحييدها عن الاستقطابات السياسية والمذهبية، لتبقى فضاءً جامعاً للحوار والتضامن والكرامة الإنسانية.

خاتمة

لقد تجاوزت أربعينية الإمام الحسين حدود الشعيرة الدينية لتصبح ظاهرة اجتماعية وإنسانية فريدة، تعيد تعريف معنى الاجتماع البشري حول منظومة من القيم المشتركة. فهي ليست مجرد مسير نحو كربلاء، بل مسير نحو فكرة الإنسان التي تنتصر للعدل، وتكرّم الكرامة، وتؤمن بأن الاختلاف لا يمنع اللقاء على المبادئ الكبرى.

ولعل سر خلود الأربعينية أنها لا تطلب من الإنسان أن يتخلى عن هويته، بل تمنحه مساحة ليجد في الحسين ما ينسجم مع ضميره؛ فالمؤمن يراه إماماً، والمثقف يراه مشروعاً أخلاقياً، والباحث يراه ظاهرة اجتماعية، والإنسان يراه رمزاً عالمياً لمقاومة الظلم. ومن هنا أصبحت الأربعينية هويةً جامعةً، لا لأنها ألغت الفوارق بين الناس، بل لأنها ارتقت فوقها، وجعلت من قيم العدالة والإيثار والخدمة والحرية لغةً مشتركة يفهمها الجميع، مهما اختلفت أديانهم ومذاهبهم وأيديولوجياتهم.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

تأسس مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية في بغداد بموجب شهادة التسجيل الصادرة عن الأمانة العامة لمجلس الوزراء -دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة (1J775330) بتاريخ ٢٠١٢/٤/٢٦، وهو مركز علمي بحثي يهتم بإجراء الاستطلاعات والدراسات الميدانية فضلا عن إعداد الأوراق البحثية والمقالات حول قضايا الحياة المجتمعية للأسرة والمواطن، والدولة بمؤسساتها المختلفة.

- لا يجوز نشر أي من إصدارات المركز ونتاجاته العلمية الا بموافقة خطية صريحة ويمكن الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملا.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

للتواصل

00964- 7710122232

Alfaidcenter2011@gmail.com

www.al-faidh.com

العراق - بغداد - الكرادة